ابن بطوطة ورحلته

اريد ان احدثكم اليوم عن احد العظماء الذين انجبتهم الارض المغربية وكان لهم الحظ الاكبر في بناء صرح المدنية العربية ببلادنا واعنى به ذلكم الرحالة الشهير أبا عبد الله بن بطوطة .

ولد أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم ابن بطوطة اللواتى بمدينة طنجة يوم الاثنين ١٧ رجب سنة ٧٠٣ (٢٤ فبراير سنة ١٣٠٤) ، واصل عائلته من قبيلة لواتة في شمال المغرب الاقصى ، وكان أفراد هذه العائلة يتعاطون العلم ويتولون مناصب القضاء والتدريس[1] فاعتنى ابوه بتربيته فقرأ على مشايخ بلده ، وشب أبو عبد الله متدينا ورعا وكان له من صباه شوق كبير إلى اداء فريضة الحج وزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، ولما بلغ الثانية والعشرين من عمره لم يطق صبراً على تنفيذ نيته رغم ما في ذلك من الصعوبات نظراً لصغر سنه وانفراده في السفر وفراقه لاهله واحبابه فآثر القيام بواجبه الديني على هناء العيش وراحته ، ولننصت إليه يحدثنا عن مغادرته لطنجة قال : « كان خروجي من طنجة مسقط رأسي في يوم الخميس الثاني من شهر الله رجب الفرد عام ٧٢٥ (١٤ يونيه سنة ١٣٢٥) معتمداً حج بيت الله الحرام ، وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ، منفرداً عن رفيق آنس بصحبته ، وركب اكون في جملته ، لباعث من النفس شديد العزائم ، وشوق الى تلك المعاهد الشريفة كامن في الحيازيم ، فجزمت امري على هجر الاناث من الاحباب والذكور ، وفارقت وطني مفارقة الطيور للوكور ، وكان والديّ بقيد الحياة فتحملت لبعدهما وصبا ، ولقيت كما لقيا نصبا . » [1]

وقد كان له باعث آخر وهو محبته للسياحة والاطلاع على احوال البلاد والتعرف بالعلماء والصلحاء كما اشار الى ذلك في بطون رحلته [2] وبلغ به هذا الولوع إلى درجة انه كان كما يقول : « ومن عادتي في سفري ان لا اعود على طريق سلكتها ما أمكنني ذلك » [3] حتى يمكنه ان يرى طريقاً جديدة واقطاراً لم يشاهدها .

قصد ابن بطوطة المشرق على طريق البر مخترقاً المغرب الاقصى والجزائر وتونس ، وفي أوائل القرن الثامن كانت الوحدة المغربية قد انفصمت بذهاب دولة الموحدين واشتغال بني مرين بتدعيم اركان دولتهم بالمغرب الاقصى والاندلس ، فقامت دولة بني عبد الوادي بتلمسان ودولة بني حفص بتونس ، وقد كان استرجع المرينيون تلمسان قبل سفر ابن بطوطة ولاكن في ايام السلطان أبي سعيد عثمان (٧١٠-٧٣٢/١٣١٠-١٣٣١) عند ما خرج ابن بطوطة من المغرب الاقصى كانت تلمسان في ملك بني عبد الوادي .

لا يمكننا ان نتبع ابن بطوطة في كل أسفاره وقد دامت ما يقرب من الثلاثين سنة جاب في اثنائها القسم الاكبر من المعمور شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً فقد زار افريقيا الشمالية ومصر والشام والقدس وجزيرة العرب والعراق وبلاد العجم واليمن وشواطئ افريقيا الشرقية وعمان وآسيا

ملاحظة — اني استعمل كلمة « المغرب » بمعناها الاصلي أي مقابل المشرق أعني افريقيا الشمالية والاندلس .

(١) كان قاضي مدينة رندة بالاندلس لما زارها المترجم سنة ٧٥٠ أبا القاسم محمد بن يحيى بن بطوطة وهو ابن عمه .

(١) رحلة ج ١ ص ١٢ - ١٣ من طبعة باريس ١٨٥٣ - ١٨٥٩ . وكلما احلت على الرحلة فالمقصود هذه الطبعة

(٢) رحلة ج ١ ص ٣٨

(٣) رحلة ج ٢ ص ٢١

الصغرى وروسيا الجنوبية والامبراطورية البيزانطية وبلاد التتر والتركستان والافغنستان والسند والهند والصين وجزر المحيط الهادي كسيلان وجاوة وذيبة المهل Iles Maldives [1] وغيرها وعند ما رجع الى المغرب قصد الاندلس ثم توجه إلى أواسط افريقيا ورجع بعد هذه الاسفار الطويلة إلى مدينة فاس .

وقبل الاشارة إلى اهم الوقائع التي حدثت له في تنقلاته في أطراف البلاد نريد ان نتكلم على كتابه « تحفة النظار ، في غرائب الامصار ، وعجائب الاسفار . » المشهور برحلة ابن بطوطة وهذا المؤلف قد حاز شهرة عالمية لما احتوى عليه من الفوائد الهامة فيما يرجع للجغرافية والتاريخ واحوال البلاد الاجتماعية في القرون الوسطى وهو من أول الكتب التي أهتم بها علماء الاستشراق والجغرافية والتاريخ في أول القرن التاسع عشر وعولوا عليها في تعرف بلاد الشرق وماضيها .

وأول من نبه علماء الغرب إلى هذه الرحلة العالم الالماني سيتزين Seetzen فقد عثر في بلاد المشرق على نسخة من مختصر كتاب ابن بطوطة فلخصه في مجلة المانية [2] في سنة ١٨٠٨ ، واهتم بعده العلماء بهذا المختصر فطبعوه وترجموه وعلقوا عليه [3].

وعثر بعد ذلك السائح الانكليزي بركهارت Burckhardt [4] على ثلاث نسخ من مختصر آخر للرحلة اطول من الاول فترجمه المستشرق لي Lee إلى الانكليزية مع حواش ضافية تفسر غامضه وتبين فوائده .

وفي سنة ١٨٤٠ ظهر في الاشبونة عاصمة البرتغال الجزء الاول من الرحلة مترجماً إلى اللغة البرتغاليه ، وقد ترجمه الاب مورا José de Santo-Autonio Moura عن نسخة تامة اشتراها بفاس سنة ١٧٩٧ [1].

وبعد هذا تعرض الفرنسيون لرحلة ابن بطوطة بالنشر والترجمة والتعليق فمنهم من اهتم بالقسم الراجع لبلاد العجم ومنهم من اعتنى بما يختص بالسودان أو الصين أو الهند الخ ، وفيما بين سنة ١٨٥٣ وسنة ١٨٥٩ ظهرت أول ترجمة تامة للرحلة باللغة الفرنسية مع الاصل العربي [2] وقد طبعت هذه الترجمة خمس مرات في بحر أربعين سنة .

وترجم الرحلة الى الالمانية المستشرق مزيك وطبعت الترجمة سنة ١٩١٢ .

وترجمها الى التركية محمد شريف صهر السلطان وطبعت الترجمة سنة ١٣٣٣ (١٩١٧) [3] ولها ترجمة تركية اخرى تسمى تقويم وقائع .

هذه نبذة من أعمال المستشرقين فيما يرجع لهذه الرحلة وهي تنبئكم عن مقدار قيمتها وكبير فائدتها ، ولي كلمة استطرادية هنا بهذه المناسبة : اننا معشر العرب والمسلمين لا ننظر بعين الرضى الى المستشرقين ورميهم جميعاً بالتعصب لدينهم والحط من مدنيتنا ودينا ولغتنا ، واني أرى أننا نخطأ كل الخطإ في تعميم الحكم عليهم ، والصواب أن نميز بين من يدرس حضارتنا بدافع علمي محض وبين من يتخذ العلم وسيلة لاغراضه وأغراض قومه ، ثم أن أعمالهم تنقسم الى قسمين : منها ما يرجع لنشر مؤلفات اجدادنا وترجمتها والبحث عنها وحفظها في المكاتب وغير ذلك مما فائدته

(١) واصل اسم هذه الجزيرة بالفرنسية عربي الا انهم قدموا المهل على ذيبة فقالوا Maldives

(2) Zach's Monatliche Correspondenz, Band XVII, s., pp. 293-304.

(٣) انظر المصادر في آخر البحث

(٤) وقد عقد فصلا على ابن بطوطة في ذيل كتابه « رحلة الى بلاد النوبة »
Travels in Nubie, 2e éd. Londres, 1822, in-4, pp. 487-492.

(١) انظر المصادر
(٢) » »
(٣) » »

بينة ، وهذا القسم من أعمالهم يجب علينا أن ننظر اليه بكل اجلال وتعظيم شاكرين لهم مجهوداتهم ومقرين بفضلهم ، والقسم الثاني هو ما كان من مبتكرات أفكارهم وأعني به مؤلفاتهم في الحضارة الاسلامية والدين الاسلامي وتاريخ الدول العربية ووصف احوالنا الاجتماعية وغير ذلك من مناحي حياة بلاد الشرق عموماً ، فما كان من هذه الكتب تابعاً جادة الحق وبعيداً عن التعصب أخذنا بما فيه من فوائد وما كان منها منطوياً على سوء نية أو ظاهر تعصب واجحاف تعرضنا له بالنقد والرد على مفترياته واستنتاجاته الغير المنطقية ، هذه كلمة إنصاف دعاني اليها اعجابي الكبير باعمال المنصفين من المستشرقين امثال دوزي Dozy الهولاندي ودي سلان de Slane الانكليزي وفريطاغ Freytag ووستنفلد Wustenfeld الالمانيين - ومقتي الشديد للمتعصبين منهم اصحاب الاغراض الذميمة امثال الاب لامنس Lammens البلجيكي ومرغوليوث Margoliouth الانكليزي وسنوك هورخروني Snouck-Hurgronje الهولاندي .

ولنرجع الان إلى ابن بطوطة وقد رأينا أي فضل لطائفة من المستشرقين عليه .

قد نبغ كثير من الكتاب العرب المغاربة من اندلسيين وافارقة في فن الرحلات وذلك راجع لأسباب اهمها :

أولاً . — بعد بلادهم عن الشرق والحجاز مهد الحضارة العربية ومهبط الوحي جعل الحجاج المغاربة من العلماء والادباء يهتمون بوصف تلك البقاع الشريفة وما احتوت عليه من آثار الصحابة رضوان الله عليهم والعلماء ومن المدارس والمساجد وغيرها تعريفاً لابناء وطنهم بحالة تلك البلاد التي يحنون إليها دائماً وتربطهم بها روابط الدم واللغة والدين .

ثانياً . — اغترابهم في طلب العلم ورواية الحديث وحرصهم على لقاء العلماء الاجلة لاخذ المعارف من منابعها الاصلية كان أيضاً من أسباب نفوذ سوق الرحلة ببلاد المغرب ، فكان الطالب عند ما يرجع من سفره وقد آب بعلم كثير يؤلف رحلة يذكر فيها المشايخ الذين التقى بهم وقرأ عليهم ويثبت الاجازات التي أخذها منهم ويصف كل ما شاهده في أسفاره وكان ذلك على حد تعبير أحد المشتغلين بهذا الفن (1) « شبه دكطورة » يتميز بها المؤلف الراحل عن غيره من العلماء المدرسين .

ثالثاً . — وهناك سبب آخر يرجع لقرب المغرب من اوربا فنتج عن ذلك سهولة السفر الى الاقطار الغربية وخصوصاً في القرون المتأخرة أي منذ القرن السادس عشر ، فكان سلاطين المغرب الاقصى مثلاً يوفدون السفراء الى ملوك اوربا لعقد المعاهدات والمخابرة في الشؤون والمصالح المشتركة وقد ألف كثير من هؤلاء السفراء أو كتابهم رحلاتهم في بلاد الغرب (2) .

ثم أن الرحلة تحتوي في العادة اما على ذكر المراحل والمنازل والمدن التي مرّ بها المؤلف مع وصف مشاهدها وأخلاق اهلها وعاداتهم ، أو تحتوي على تراجم العلماء والاولياء وغيرهم ممن التقى بهم المؤلف مع ذكر المناقشات العلمية التي وقعت له معهم أو تكون مجموعة منتخبات شعرية للمؤلف والادباء الذين تعرف بهم .

ورحلة ابن بطوطة من النوع الاول أي النوع الجغرافي ، وفائدتها من هذه الناحية عظيمة لان رواد الشرق الاقصى واواسط افريقيا وآسيا الوسطى قبل ابن بطوطة قليلون بل كان ابن بطوطة أول من دخل بعض الاقطار وكتب عنها زد على ذلك أنه ثقة لا يصف في الغالب الا ما رأى

(1) مقدمة رينو لجغرافية ابى الفداء ص .CXXIII

(2) قد فصلت ذلك في مقدمة جعلتها لرحلة السفير المغربي ابن عثمان المسماة إحراز المعلى والرقيب.

ويحدثنا بأمانة عما يشاهده من أحوال الامم وعاداتهم وصناعاتهم وما تنتجه بلادهم من الفواكه والنباتات وما تحتوي عليه أراضيهم من المعادن والبحور المحيطة بهم من الجواهر.

واليكم الآن طائفة من أقوال العلماء الذين درسوا رحلة ابن بطوطة لنقف على قيمتها العلمية، قال أحدهم [1] معلقاً على سفر ابن بطوطة الى مدينتي مالي وتنبكتو بالسودان: « وهو (أي ابن بطوطة) أول الرحالين الذين توغلوا في اواسط افريقيا ممن بلغتنا كتب رحلاتهم، وقد جاب ابن بطوطة افريقيا من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الشمال الغربي، وكل ما ذكر يتفق في غالب النقط مع ما جاء في كتب الرحالين المعاصرين، » وقال الجغرافي الالماني الشهير ريتر Ritter [2]: « وقد أعطى ابن بطوطة العالم العربي الطنجي المغربي الرحالة المسلم الصدوق المطلع تفاصيل كثيرة عن الاقطار النائية كاواسط افريقيا والهند والصين ».

وقال الرحالة الالماني سيتزن Seetzen [3]: « اي رحالة اوربي من المعاصرين يمكنه ان يفتخر بكونه قضى مثل هذا الزمن الطويل المعادل لنصف عمر الانسان في الجولان في الاقطار البعيدة وهذا مع الاقدام الذي لا يعرف الوهن وتحمل المشاق والمتاعب؟ وأي أمة اوربية كان في امكانها ان تنجب رحالة في القرن الرابع عشر ليطوف الاقطار الاجنبية بمثل هذا الفكر الحر وهذه البراعة في الملاحظة ويكتب مشاهداته مثل ما فعل هذا الشيخ المغربي الشهير؟ ... »

وقال أحد الجغرافيين الانكليز [4]: « ان رحلة ابن بطوطة تعادل في الفائدة رحلة ماركو بولو ان لم تفقها ».

وقال ناشر جغرافية ابى الفداء المتسشرق الفرنسي رينو Reinaud [1] عن رحالتنا: « قد فاق ابن حوقل والمسعودي وان لم يكن له علمهما فقد وصل الى اقطار كثيرة لم يكن لهما أدنى معرفة بها ».

وأما فائدة رحلة ابن بطوطة فيما يرجع للتاريخ فانها لا تقل عن فائدتها الجغرافية وهذا بالخصوص في الفصول المتعلقة بالممالك السلجوقية في آسيا الصغرى وبدولة التتر ببلاد العجم وبروسيا الجنوبية وكانت اذ ذاك تحت حكم احد ابناء جنكيز خان، وأهم من كل هذا ما جاء في رحلته عن تاريخ الدولة الاسلامية الهندية وعن وصف عاصمتها دهلي وعوائد أهل الهند وسائر احوالهم الاجتماعية.

محمد الفاسي

(التتمة مع المصادر في العدد المقبل)

---

(1) Walckenaer, Recherches géographiques sur l'intérieur de l'Afrique Septentrionale, Paris, 1821, p. 29.

(2) Ritter's Erdkunde, X^e partie, III^e livre, t. VII : Les pays de l'Euphrate, p. 277.

(3) Zach's, Monatliche Correspondenz, Band 17, s. 304

(4) The Negroland of the Arabs examined and explaines; by W. Desborough Cooley ; London, 1841, in-8°, p. 70, note.

(1) مقدمة ترجمة جغرافية ابى الفداء — باريس سنة ١٨٤٨ ص ١٥٦ (CLVI) بالارقام الرومانية.

المشير اليوطي

توفي في شهر غشت المنصرم مشير فرنسا ليوطي فكان لوفاته أثر حزن عميق في فرنسا وفي سائر الاقطار التابعة لها وبالأخص المغرب الاقصى وقد كان المشير ليوطي مثل فيه الجمهورية العظيمة ثلاثة عشر سنة وأظهر في القيام بخطته السامية مقدرة نادرة اشهرت اسمه وجعلته في صف عظماء التاريخ، وكان يحب المغرب والمغاربة حباً عظيماً ولم يزل بعد مفارقته هاته الديار يلهج بذكرها ويهتم بشئونها وينتهز سائر الفرص لالفات الانظار اليها الى آخر ساعة من حياته الحافلة بجلائل الاعمال.

فنرفع الى ذويه تعازينا الحارة وندعو لهم بجميل الصبر والسلوان.